



التواصل الصوفي بين سودان وادي النيل وبلاد المغرب العربي الكبير

د. خالد محمد فرح
الأمانة العامة لتجمع دول الساحل والصحراء (س . ص)

مقدمة موجزة عن تاريخ الدعوة الإسلامية في السودان الشرقي

عرفت بلاد السودان الشرقي ، أو ما يعرف بسودان وادي النيل ، التي هي جمهورية السودان الحالية ، عرفت الإسلام منذ القرن الهجري الأول ، بل إنّ من العلماء والباحثين السودانيين المعاصرين من يذهب إلى القول بأن السودان قد عرف الدعوة الإسلامية ، قبل هجرة الرعيل الأول من الصحابة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، ومن بين هؤلاء العالمان الجليلان المرحومان بروفيسور عبد الله الطيب ، وبروفيسور حسن الفاتح قريب الله ، اللذان كانا يريان أنّ الحبشة التي هاجر إليها نفر من المسلمين الأوائل بأمر من النبي ﷺ ، إنما كانت بعض نواحي السودان الحالي ، وليست إثيوبيا المعاصرة ، ولهما في ذلك أدلة وبينات لا يتسع المجال هنا لبسط القول فيها .

ومهما يكن الرأي حول صحة هذه الفرضية أو عدم صحتها ، إلا أنّ الثابت هو أنّ السودان الذي كان يعرف باسم بلاد النوبة ، قد اتصل بالدعوة الإسلامية منذ القرن الهجري الأول ، وكان أول معالم ذلك الاتصال هو غزو المسلمين لبلاد النوبة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ، وبالتحديد في سنة **21** هجرية الموافقة لسنة **641** ميلادية ، تلك الغزوة التي أذاق النوبة فيها جند العرب المسلمين القادمين من مصر آنئذ ، الأمرّين

بسبب براعتهم في تسديد السهام نحو الأعين مباشرة ، حتى أن المسلمين أسموهم يومئذ «رماة الحدق» . ولقد كان يوم «دنقلة» وهي عاصمة مملكة «المقرّة» النوبية في ذلك الوقت ، يوماً مشهودا قال فيه أحد الشعراء من جند المسلمين :

لم تر عيني مثل يوم دنقلة والخيل تعدو بالدروع مثقلة

بيد أنّ أبرز وأهم مظاهر ذلك الاتصال المبكّر ، هو غزو جيوش العرب المسلمين بقيادة الصحابي عبد الله بن سعد بن أبي سرح ﷺ مرة أخرى لمملكة المقرة ، في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، واصطدامها مع النوبة في معركة دنقلة التي وقعت في سنة **31** هجرية الموافقة لعام **651** أو **652** ميلادي . وللمرة الثانية أيضاً لم يستطع أي من الطرفين أن يحسم الموقف لصالحه خلال تلك المعركة ، وانجلى الأمر عن الهدنة والصلح بينهما فيما عرف باتفاقية «البقط» ، وهي عبارة عن اتفاقية للتبادل السلعي ، ومعاهدة للكف عن العدوان بين المسلمين في مصر من جانب ، وبلاد النوبة من جانب آخر .

ومما يهمنا من تلك الاتفاقية بصفة خاصة ، فيما نحن بصدده من أمر تاريخ الدعوة الإسلامية في السودان ، هو أنّ أحد بنودها قد نص صراحة على ضرورة التزام النوبة بحماية المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلة ، وإكرامه ، وكنسه ، وإسراجه . . الخ . وذلك مما يدل على وجود جماعة من المسلمين في دنقلة منذ ذلك التاريخ المبكّر ، أي نهاية الثلث الأخير من القرن الهجري الأول .

أما عملية استعراب وأسلمة السودان بصفة عامة ، فقد تمت بصورة تدريجية وبطيئة عبر عشرات السنين التي تلت ذلك الاحتكاك الأول ، وذلك عن طريق هجرات القبائل العربية التي وصلت إلى السودان واستقرت في ربوعه ، إما انطلاقا من الجزيرة العربية مباشرة عن طريق البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وإما بعد أن كانت تلك القبائل قد استقرت لبعض الوقت في صعيد مصر خاصة ، أو في بعض بلاد المغرب العربي ، ثم إنها نزحت في وقت لاحق من هناك إلى أرض السودان . وقد هاجرت تلك القبائل العربية إلى السودان نتيجة لعدة دوافع وأسباب سياسية تمثلت بصفة خاصة في تغيير سياسة الدولة العباسية تجاه القبائل العربية التي كانت قاطنة في صعيد مصر بإسقاط أسماء أفرادها من ديوان الجند واستبدالهم بالأتراك ، مما اضطر طوائف كبيرة من العرب إلى الهجرة إلى أرض السودان ، ودوافع اقتصادية تمثلت في توافر المراعي في سهول السودان ، علاوة على توفر النشاط التعديني ، وخصوصاً بالنسبة

لمعدني الذهب والزمرد بصحراء السودان الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، وفقاً لما بينه المؤرخون كاليعقوبي ، والمسعودي ، وابن حوقل ، وابن خلدون ، وغيرهم ، باستفاضة في مؤلفاتهم . كما دفعت السياسات التعسفية والقمعية التي مارسها حكام مصر من المماليك على طوائف كبيرة ممن كانوا يسمون بالعربان الذين يقطنون صعيد مصر إلى النزوح إلى السودان للاستقرار فيه . [1] ولعل أبلغ ما يلخص تلك الحقيقة التاريخية ، هو قول أحد أولئك العربان ، وهو يحث أحد أقاربه أو بني عمومته على الرحيل من الصعيد ، والهجرة إلى السودان ، ويزين له ذلك :

لو تهاودني تروح سنار — تعيش وتعيّش عيالك
فرشوط قادت عليك نار — والبـاي عدّل وجالك

التمهيد لتحول السلطة الحاكمة في شمال السودان نحو الهوية الإسلامية :

كان سقوط مملكة المقرة وعاصمتها دنقلة على يد العرب المسلمين ، واعتلاء عرشها بواسطة ملك مسلم لأول مرة ، في سنة **717** هـ ، الموافقة لعام **1317** م ، تمهيداً لتحول السلطة في كل أقاليم السودان الأوسط والشمالي للقبائل العربية المسلمة ، وقد مرت مدة ليست بالقصيرة حتى قيام مملكة الفونج الإسلامية سنة **1504**م ، تكاثر فيها العرب في مملكة علوة وعاصمتها «سوبا» التي تقع على بعد حوالي **20** كيلومترا جنوب شرق الخرطوم الحالية ، حيث برز وجود العرب في مملكة علوة بصورة واضحة ، حتى طغى على السكان الأصليين مما أدى في النهاية إلى سقوط سوبا نفسها ونهاية مملكة علوة المسيحية ، نتيجة للحلف بين القبائل العربية وعنصر الفونج المستعرب المسلم ، في مطلع القرن السادس عشر الميلادي .

التصوف في أثناء حكم سلطنة الفونج الإسلامية :

تعتبر دولة الفونج ، أو مملكة سنار ، أو «السلطنة الزرقاء» **1504 ــ 1821** م ، أول دولة «أو كيان» ذو هوية عربية إسلامية ، بسطت سلطتها على معظم الأراضي التي تشكل الآن جمهورية السودان . ويعتقد على نطاق واسع أنّ الثقافة السنارية ، هي التي

(1) الأستاذ الدكتور . يوسف فضل حسن ، «الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان» ، مقال ضمن كتاب: «الإسلام في السودان» ، من تحرير الأستاذ الدكتور . مدثر عبد الرحيم ، والدكتور . الطيب زين العابدين ، دار الأصالة ، الخرطوم ، 2004 ، ص 13 ـ 29 .

شكّلت هوية السودان الحالية ، وطبعتها بطابعها المميز ، وقد ارتبطت مملكة سنار ارتباطاً وثيقاً بالتصوف وبالطرق الصوفية ، حتى أنه يمكننا أن نقول إنّ التصوف كان يمثل بصفة عامة ، مرتكزها الروحي ، وهويتها الفكرية والإيديولوجية المميزة ، في إطار العقيدة الإسلامية الجامعة ، ومن أبلغ الشواهد على ارتباط تلك الدولة بالتصوف ، هو أنّ الشيخ عجيب الكبير ، وهو نجل وخليفة الشيخ عبد الله جماع القاسمي ، الذي أسس تلك المملكة بالتحالف مع السلطان عمارة بن عدلان الملقب بـ « عمارة دنقس » ، كان يعتبر نفسه من أكابر أولياء الله الصالحين ، وكان يلقب بـ « سلطان الظاهر والباطن» ، بمعنى أنّه قد استطاع الجمع بين السلطتين الروحية والزمنية . وتذكر الروايات الوطنية أنه قد انخرط في سلك الطريقة القادرية على يد الشيخ تاج الدين البهاري ، أحد خلفاء الشيخ عبد القادر الجيلاني ، عقب مجيئه إلى السودان في حوالي عام **974** هـ الموافق لعام **1566** م ، بدعوة من أحد التجار السودانيين الذين التقى بهم أثناء أداء فريضة الحج .

ويعتقد نفر من الباحثين السودانيين أن كثيراً من الخصائص الأخلاقية التي تميز السودانيين بصفة عامة ، مثل الزهد ، والتواضع ، وإيثار الخمول ، والبعد عن الأضواء ، وهي صفات صوفية بامتياز ، إنما تعود جذورها إلى تلك الفترة ، كما يرون أنّ التلاقح الذي حدث بين المنهجين الفقهي والصوفي ، على نحو ما تبلور بصورة واضحة عند الإمام الغزالي وأضرابه من المتصوفة المعتدلين مثل الجنيد ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، قد وضع النواة الأولى للخصائص المميزة للثقافة الدينية في السودان ، تلك الثقافة التي آثرت التصوف السني البعيد عن الغلو والانحراف العقدي ، التي شعارها العبارة القائلة : « من تفقّه ولم يتصوف فقد تفسّق ، ومن تصوف ولم يتفقّه فقد تزندق ، ومن تفقّه وتصوف فقد تحقق !» . ولذلك كثيراً ما ترد عبارة « جمع بين الفقه والتصوف ، أو جمع بين علمي الظاهر والباطن» ، في كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لمؤلفه الشيخ محمد النور بن ضيف الله **1727 ـ 1810** م ، وذلك في معرض ترجمته لما يربو على مائتين وستين شيخاً وفقيهاً وعالماً وولياً صالحاً ، عاشوا خلال فترة سلطنة الفونج **1504 ـ 1800** م تقريبا [1] .

(1) الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن ، « بواكير الدعوة الإسلامية والثقافة العربية» ، ضمن التمهيد لتحقيق كتاب « الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» ، تأليف: محمد النور

كذلك يشعر المسلمون في السودان أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خص بلادهم بتكريم روحي وحضاري مميز ، يتجلى في اعتقادهم بأنّ قيام دولة الإسلام في السودان ، وهي مملكة سنار في عام **1504** م ، إنما جاءت بمثابة التعويض للأمة الإسلامية عن ضياع الأندلس من بين أيدي المسلمين على أيدي الفرنجة في عام **1492** م ، أي بعد مضي اثني عشر عاماً فقط من زوال دولة الأندلس . فكأنّ الله سبحانه وتعالى قد قضى بنهاية دولة عربية إسلامية في أوروبا ، وعوضها بقيام دولة عربية أفريقية إسلامية قوية في أفريقيا . (1) وهم يرون أيضاً أنهم هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (2) وفقا لما جاء في تفسير الإمام الحافظ بن كثير ، الذي أورد حديثا لجابر بن عبد الله رضي الله عنه ، جاء فيه : لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « يا عمر تعال فاسمع ما قد أنزل الله ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ، ألا وإنّ من آدم إلى ثلة ، وأمتي ثلّة ، ولن نستكمل ثلّتنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » (3) .

لمحة عن تاريخ الطرق الصوفية في السودان :

يميل معظم المؤرخين والباحثين المختصين في السودان ، إلى الاعتقاد بأنّ أول الطرق الصوفية دخولاً إلى السودان ، وانتشاراً فيه ، هي الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي (**1166 ـ 1258**م) ، نسبة إلى قرية (شاذلة) بتونس ، الذي ولد بقرية (غمارة) ببلاد الريف بالمغرب الأقصى سنة **593** هـ ، الذي توفي ودفن في قرية (حميثرا) ، شمال غربي بلدة (حلايب) في منطقة الحدود السودانية المصرية .

ويؤرخ الباحثون لدخول الشاذلية إلى أرض السودان ، بقدوم الشيخ الشريف « حمد أبو دنّانة » ، الذي يروى أنه قدم للسودان في حوالي منتصف القرن الخامس عشر

بن ضيف الله ، تحقيق: يوسف فضل حسن ، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم ، الطبعة الثانية ، 1974 ، ص 8 .

(1) الأستاذ الدكتور حسن مكي محمد أحمد ، « حول التشكيل العقلي لإنسان السودان» ، مقال بمجلة « الخرطوم 2005 » ، إصدارة خاصة بمناسبة الاحتفال بالخرطوم عاصمة للثقافة العربية للعام 2005 ، العدد الثالث ، مارس 2005 ، ص . 14 ـ 17 .

(2) الآيتان 13 و14 من سورة الواقعة .

(3) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، المجلد الرابع ، تفسير سورة الواقعة ، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2001 .

الميلادي ، واستقر في بلدة « سقادي » ، الواقعة بولاية نهر النيل بشمال السودان وتزعم الروايات الوطنية أنّ الشريف حمد هذا ، هو صهر عبد الله بن محمد بن سليمان الجزولي ، ناشر الطريقة الشاذلية في المغرب ، ومؤلف كتاب الأدعية المعروف ، المشهور بـ « دلائل الخيرات » [1] .

وتمضي الرواية الوطنية إلى القول بأنّ الشريف حمد المذكور ، قد أنجب سبع بنات وولداً واحداً اسمه الشريف الحسن الملقب بـ « البيتي » ، وأنّ كل واحدة من أولئك البنات السبع قد أنجبت ولداً صار من كبار أولياء الله في السودان ، فهم أبناء خالات ، وعبر الانتساب إليهم ، حدث التراحم والتوادد والتلاحم الروحي والاجتماعي بين طوائف كثيرة من السودانيين . ومما يجدر ذكره أن الرواية الوطنية تشير إلى أن السلطان الولي عجيب بن عبد الله جماع نفسه ، هو حفيد الشريف حمد أبو دنانة عن طريق إحدى بناته السبع المشار إليهن .

التواصل الصوفي بين السودان وبلاد المغرب العربي الكبير

ذكرنا في النقطة السابقة أنّ أول طريقة صوفية دخلت إلى السودان هي الطريقة الشاذلية ، كما أشار إلى ذلك غير واحد من الباحثين ، وأن دخولها كان على يد الشريف حمد أبو دنانة في حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وهذه لعمري ، أولى النقاط التي يجدر بنا تسجيلها في معرض الإشارة إلى التأثير الصوفي المغربي في السودان .

أما المتصوفة والعلماء المغاربة بصفة عامة ، فإنهم ـ شأنهم في ذلك شأن الكثير من المتصوفة والعلماء الذي قدموا إلى السودان من مختلف أنحاء العالم الإسلامي بعيد قيام مملكة سنار ـ ، فقد تقاطروا إلى السودان ، واستقروا فيه ، واندمجوا في مجتمعه ، وقد سهّل من ذلك الاندماج ، التماثل العقدي والمذهبي ، حيث غن السودانيين في غالبيتهم العظمى سنيون مالكيون ، ذلك لأن معظم من هاجر إلى السودان من القبائل العربية جاءوا من صعيد مصر ، الذي عرف بشيوع المذهب المالكي بين سكانه . وقد انتشرت دراسة كتب الفقه المالكي مثل « رسالة أبي زيد القيرواني » ، و« مختصر خليل بن اسحق » ، والمدونة « لأسد بن الفرات » ، وشرحها لأبي عمران

---

(1) الدكتور بابكر فضل المولى حسين ، « مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية » ، منشورات الخرطوم عاصمة للثقافة العربية ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، 2004 ، ص . 207 .

الغفجومي ، ومختصر الأخضري في العبادات ، وغيرها من مصنفات التراث العلمي المغربي . وكما انتشرت كتب الفقه المالكي في السودان خلال دولة سنار ، وخصوصا تلك التي تنتسب إلى التراث العلمي المغربي والأندلسي ، فقد انتشرت فيه أيضا بعض كتب التصوف التي كان معظم مؤلفيها من المغاربة ، أو من كانت لهم صلة ما بالمغرب ، ومن تلك المؤلفات ما يلي :

الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني المتوفى في عام **973** هـ ، وقد ذكر الفقيه السوداني محمد النور بن ضيف الله (**1727** ـ **1810** م) أنه قد تأثر به في تأليفه لكتابه الموسوم بـ « الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» .

كتاب « دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار» لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي ، وهو مجموعة من الأدعية وصيغ الصلاة على النبي ﷺ ، تعرف أيضا بـ « الجزولية» .

ومن مؤلفات تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري (ت **709** هـ) كتاب « مناجاة بن عطاء الله» وهو أكثر كتبه ذيوعا ، ثم كتاب « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن» لابن عطاء الله السكندري أيضا .

ومن مؤلفات الإمام أبي الحسن الشاذلي نفسه « الوظيفة» ، و« حزب البحر» .

لقد أثّرت تلك المؤلفات في نفوس العلماء والمتصوفة من أهل السودان ، فطفقوا ينسجون على منوالها بعض المصنفات في التصوف ، حيث ظهرت بعض الكتب التي ضاعت أصولها ـ مع الأسف ـ وحفظ ود ضيف الله أسماءها لنا في كتابه القيم « الطبقات» ، الذي يشير من بين تلك الكتب إلى كتاب : « إرشاد المريد في علم التصوف» للشيخ عبد الرحمن بن جابر ، أحد تلاميذ العالم المصري « محمد البنوفري» ، وكتاب « صفة الفقير» للشيخ محمد ولد هدوي ، وهو عبارة عن وصف لأخلاق الصوفية ، وكتاب « آداب الطريق» ، و« آداب الذكر» ، وكلاهما للشيخ إسماعيل صاحب الربابة [1] .

(1) يوسف فضل حسن ، « بواكير الدعوة الإسلامية والثقافة العربية» ، ضمن مقدمة كتاب « الطبقات» ، مصدر سبق ذكره ، ص 10 .

ومن مظاهر التأثر بالتراث العلمي المغربي أيضاً ، أن محمد النور بن ضيف الله قد ذكر في كتابه «الطبقات» المشار إليه آنفاً ، اسم كتاب «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» للمقري التلمساني المتوفى عام **1041** هـ ، الموافق **1631** م ، من ضمن الكتب التي تأسى بها في تأليف كتابه المومى إليه [1] .

ويفيدنا ود ضيف الله أنّ الشيخ إدريس محمد الأرباب ، المتوفى في عام **1060** هـ عن عمر ناهز **147** عاماً ، والمدفون ببلدة العيلفون جنوب شرقي الخرطوم ، الذي يعتبر على نطاق واسع عند السودانيين خاصةً ، بأنه بمثابة سلطان الأولياء في بلادهم ، قد أخذ الطريقة القادرية على يد ولي مغربي يدعى «عبد الكافي» ، قدم عليه بالخطوة خصيصا من بلاد المغرب . هذا ، والشيخ إدريس بن الأرباب ، على ما يذكر صاحب الطبقات ، هو أول من أوقد نار الشيخ عبد القادر الجيلاني ببلاد السودان ، وهو أيضاً ـ على ما تقول الرواية الوطنية ـ حفيد الشيخ الشريف حمد أبي دنانة المغربي ، عن طريق إحدى بناته السبع المذكورات .

كذلك يفيدنا ود ضيف الله أن الشيخ محمد ولد عيسى الملقب بـ «سوار الذهب» ، قد تتلمذ على يد شيخ لم يذكر اسمه صراحة وإنما أشار إليه بنسبته «التلمساني المغربي» ، ذاكراً أنّ الشيخ محمد ود عيسى سوار الذهب قد أخذ على ذلك الشيخ التلمساني المغربي علم القراءات ، والتجويد ، والتلاوة ، ورسم القرآن . ومن مدرسة الشيخ سوار الذهب بدنقلة ، انتشر تدريس مؤلفات مثل «متن الخرازي» ، وهي أرجوزة في رسم القرآن ، و«متن الجزرية»، وهي منظومة في التجويد . وكان قدوم الشيخ التلمساني المغربي على الشيخ محمد ود عيسى سوار الذهب في السودان ، في أواخر القرن العاشر الهجري ، أو أوائل الحادي عشر على أصح الأقوال .

كما ذكر ود ضيف الله أن الحاج موسى ، جد الشيخ الصوفي السوداني الشهير «حسن بن حسّونة» **1578 ــ 1665** م ، قد قدم إلى السودان من الجزيرة الخضراء بالأندلس . ولعل لجوء ذلك الشيخ إلى السودان ، يمثل تجسيدا لحقيقة تاريخية تومئ إلى انتقال أعداد كبيرة من مسلمي الأندلس للعيش في مناطق مختلفة من العالم

---

(1) كتاب «الطبقات» لمحمد النور بن ضيف الله ، تحقيق: يوسف فضل حسن ، مصدر سبق ذكره ، ص 36 .

الإسلامي ، عقب استيلاء الإفرنج عليها ، بما في ذلك دولة سنار التي كانت وليدة آنئذ .

فضلاً عن ذلك ، يذكر الشيخ محمد النور بن ضيف الله ، أنّ العالم السوداني الشيخ « عمّار بن عبد الحفيظ » وهو من رجال القرن الحادي عشر الهجري ، الموافق للقرن السابع عشر الميلادي ، كان قد تتلمذ بالأزهر الشريف بالقاهرة ، وهو يومئذ في طريق سفره إلى الحج ، على يد الشيخ « يحيى الشاوي » ، الذي يفيدنا عنه الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن نقلاً عن الزركلي بأنه : « من فقهاء المالكية . ولد بمليانة سنة **1030** هـ **1621** م . وأنه تعلم ونشأ بالجزائر ، وسكن مصر ودرّس بالأزهر بعد عودته من الحج عام **1074** هـ **1664**م ، وأنّ له حواشيَ وشروحاً منها : حاشية على (شرح أم البراهين للسنوسي) ، و(شرح التسهيل لابن مالك) » [1] .

وإلى جانب ذلك ، فإنّ الروايات الشفهية التي يتداولها السودانيون ، تشير إلى أنّ كثيراً من يسمون بعرب « المغاربة » في السودان ، وهم يعدون اليوم بمئات الألوف ، ويقطنون بصفة خاصة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق من لدن الخرطوم وحتى شرق سنار ، يزعمون الانتساب إما سلالياً أو روحياً ، إلى الشيخ أحمد الزروق ، دفين مدينة مصراتة الليبية ، الذي عاش بين عامي **1442** و**1493** م . وهو يعرف عند السودانيين باسم الشيخ (زروق المغربي) [2] .

كما يفيدنا الشيخ محمد النور بن ضيف الله في كتابه « الطبقات » ، أنّ من بين المتصوفة السودانيين الذين يعودون بأصلهم إلى المغرب (بمعنى المغرب العربي الكبير ، الذي يبدأ من برقة شرقاً ، وينتهي عند إقليم السوس بالمغرب الأقصى غرباً) ، شيخاً يدعى : « تاجوري النحّاس بن الشيخ عبد الله ولد حسوبة المغربي » الذي كان يعيش في بلدة « سوبا » جنوب شرق الخرطوم . وجدّه (حسوبة) ، كما يقول صاحب الطبقات ، كان معاصراً للشيخ إدريس محمد الأرباب ، الذي كان من رجال القرن العاشر الهجري ، الموافق للقرن السادس عشر الميلادي [3] .

هذا ، بينما نقرأ في كتاب : « تراجم ليبية » لمؤلفه الدكتور جمعة محمد

---

(1) كتاب « الطبقات » مصدر سبق ذكره ، ص 260 ، الترجمة 148 « عمار بن عبد الحفيظ » ، وانظر أيضاً الحاشية رقم 14 في أسفل ذات الصفحة .

(2) هذه المعلومة أفادني بها مشافهةً الباحث السوداني الأستاذ الطيب محمد الطيب .

(3) كتاب « الطبقات » ، مصدر سبق ذكره ، الترجمة (190) ، ص 307 ـ 308 .

الزريقي ، ترجمة لمتصوف ليبي يدعى : الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المغربي الشهير بالتاجوري . ويشير المؤلف إلى أنّ الشيخ المذكور من رجال القرن العاشر الهجري ، ورجّح أن تكون ولادته بمدينة تاجوراء بالقرب من طرابلس الغرب . والشاهد عندي ، هو أنه لا يبعد أن تكون للشيخ تاجوري النحاس السوداني ، علاقة بالشيخ عبد الرحمن التاجوري الليبي ، وذلك بجامع نسبة كليهما إلى المغرب ، وإلى بلدة تاجوراء الليبية [1] .

وهنالك متصوف ليبي آخر عاش في القرن الثامن عشر الميلادي ، لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأنه ربما كان ينتمي إلى جذور سودانية هو الآخر ، وذلك هو الأديب ، والشاعر ، والقاضي : « أحمد بن عبد الدائم الأنصاري » ، الذي تحدثنا معاجم تراجم الليبيين ، بأنه كان من رجال القرن الثاني عشر الهجري ، الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . وهو شخصية اعترف كبار الأساتذة المتخصصون في الدراسات الليبية ، مثل الشيخ الطاهر أحمد الزاوي ، والأستاذ علي مصطفى المصراتي ، بأنّ الغموض كان يلف معظم أطوار حياتها ، فمما قاله الأستاذ المصراتي عن هذه الشخصية على سبيل المثال : « ولقد سألت كثيراً ، وبحثت طويلاً عن ترجمة الناظم ـ يعني الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري ـ فلم أجد شيئاً يشفي الغليل . » [2] .

أما أنا ، فأرجح ـ حدساً من غير يقين قاطع ـ بخصوص أصل الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري المذكور ، والعشيرة التي كان ينتمي إليها ، أنّه ربما كانت له صلة بآل الشيخ « أحمد ود عيسى الأنصاري » ، وهي أسرة علم ، وفقه ، وتصوف مشهورة وعريقة في السودان ورائدها الأول ، وهو الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري الخزرجي ، قدم إلى السودان من المدينة المنورة في القرن السادس عشر الميلادي ، واستقر ببلدة « كترانج » على النيل الأزرق .

أما حفيده أحمد المذكور ، فقد أسس قرية (المسيد) ، التي تعرف بـ (مسيد ود عيسى) ، الواقعة جنوب الخرطوم على مقربة منها ، والشيخ أحمد ود عيسى الأنصاري ،

---

(1) خالد محمد فرح ، « شذرات من حقائق التواصل الثقافي والاجتماعي بين السودان وليبيا عبر التاريخ » ، بحث قدم أمام ندوة التواصل العربي الليبي ـ السوداني ، التي انعقدت بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، أبريل 2002 ، ص 5 .

(2) المرجع السابق ، ص 6 .

كان عالماً مشهوراً داخل السودان ، وقد تلقى العلم في الأزهر الشريف على يد الشيخ العلاّمة أبي البركات أحمد الدردير (ت **1201** هـ - **1786** م) ، مؤلف كتاب « أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك » .

ومما قوى حدسي بترجيح وجود علاقة بين الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الليبي ، وأسرة أحمد ود عيسى الأنصاري السودانية ، أنني وقفت في عمود نسب هذه الأخيرة ، على اسمي (أحمد) و(عبد الدائم) ، بالإضافة إلى النسبة للأنصار ، فقد أورد الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن في حاشية له على متن كتاب « الطبقات » لمحمد النور بن ضيف الله ، وهو الذي قام بتحقيقه ونشره ، أورد جزءاً من نسب أسرة أحمد ود عيسى السودانية على النحو التالي : « هو أحمد بن عيسى بن مضوي بن مدني بن عبد الدائم بن عيسى بن بشارة الأنصاري الخزرجي . . . الخ » (1) .

وبمناسبة ذكر كلمة « المسيد » ، وهي اسم لمدرسة تحفيظ القرآن ، أو « الكتّاب » في السودان ، فإنها تنم هي الأخرى بتأثير مغاربي أندلسي واضح ، فقد قيل إن « المسيد » هي لغة أندلسية في « المسجد » ، أو مدرسة تحفيظ القرآن ، وإنما قلبت جيمها ياء كمثل فعل أهل الخليج في بعض الكلمات مثل : « رجال / ريال ، وواجد / وايد » الخ . وقد بلغني أنّ بعض أهل الجزائر يسمون مدرسة تحفيظ القرآن مسيداً أيضا .

وهنالك شخصية أخرى عاشت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، وجسدت بصدق عمق الصلات الثقافية والاجتماعية بين إحدى بلدان المغرب العربي الكبير ، وهي ليبيا من ناحية ، والسودان من ناحية أخرى . تلك هي شخصية العالم الفذ الشيخ عبد الله السني ، المولود في حوالي عام **1800** م ، الذي نزح من السودان في تاريخ غير معروف على وجه الدقة ، واستقر بليبيا ، واتصل بعلمائها ووجهائها ، ولا يزال حفدته يعيشون فيها مواطنين ليبيين .

والراجح هو ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين ، مثل الأستاذ الدكتور عون الشريف قاسم ، أن يكون عبد الله السني المذكور ، هو من أحفاد الشيخ محمد بن مدني السني ، العالم الشهير الذي أطلق اسمه على مدينة « ود مدني » عاصمة ولاية الجزيرة بوسط السودان . أما نسبة عبد الله السني إلى سنار كما في بعض المصادر الليبية (2) ،

(1) كتاب « الطبقات » ، الترجمة (221) ، ص 342 ، الحاشية رقم (8) .

(2) انظر مقال: محمد مسعود جبران بمجلة « البحوث التاريخية » ، إصدار مركز جهاد الليبيين ، السنة

فيمكن توجيهها بأنّ السودان بأسره ، إنما كان يعرف في ذلك الزمان باسم « مملكة سنار » . ومن ذلك قول الشيخ الحاج الماحي ، أحد أبرز مداح الرسول ﷺ في السودان ، والمتوفى في عام **1871** م ، يصف ترحيب السلطات الحجازية بهم حجاجاً لبيت الله الحرام :

الباشـــــا والمـــــدير
قـــالوا لنـــا بـــى تبـــشير
حبـــــاب الــــــسنانير

والشاهد هو قوله « حباب السنانير » يعني : مرحباً بالسنانير ، أي « السناريون » جمع سناري ، بمعنى المنتسب لسلطنة سنار .

وقد أشارت بعض المصادر الليبية إلى وجود شيخ سناري آخر يدعى « أبو بكر السناري » ، وهو فقيه وعالم كان مقيماً ببلدة « مرزق » عاصمة فزّان في حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد ذكره الفقيه الليبي الشيخ أحمد الدردير بن محمد عالم الحضيري في كتابه : « المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان » بوصفه أحد الشيوخ الذين تعاقبوا على الإشراف والتدريس بزاوية مرزق . وقد قال عنه ما نصه : « الشيخ أبو بكر السناري ، الذي كان مدرساً ومربياً روحياً فيها » (1) .

هذا ، ومن الدلائل المدهشة على عراقة ومتانة الصلات الثقافية والروحية بين السودان وليبيا على سبيل المثال ، واطلاع علماء البلدين وفقهائهما على أحوال ومؤلفات بعضهم البعض ، ما وقعت عليه من إشارة وردت في كتاب الشيخ الليبي أحمد الدردير ، الذي مر ذكره آنفا ، للعالم والشيخ الصوفي السوداني « محمد الطاهر المجذوب » ، وهو من رجال القرن التاسع عشر الميلادي . فقد أورد الشيخ الدردير في معرض التدليل على ثبوت وقوع الكرامات وخوارق العادات للأولياء ما نصه : « قال سيدي محمد

السادسة ، العدد الأول ، 1984 م ، وكذلك مقال: إبراهيم سالم الشريف « من الوثائق » ، بمجلة: « الوثائق والمخطوطات » ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، العدد الخامس ، السنة الخامسة ، 1990 ، ص141 .

(1) كتاب: « المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان » ، تأليف الشيخ أحمد الدردير محمد عالم الحضيري ، تحقيق الأستاذ أبو بكر عثمان الحضيري ، ليبيا ، بدون تاريخ ، ص 32 .

الطاهر بن الشيخ سيدي محمد المجذوب في كتابه الذي ألفه في كرامات والده : (ثبوت الكرامات للمريدين من أتم الدلالة واليقين) [(1)] .

المدارس الصوفية بالسودان وعلاقتها ببلاد المغرب العربي الكبير

أولاً : المدرسة الشاذلية

وهي كما ذكرنا من قبل ، وكما يرى معظم الباحثين ، أول الطرق دخولاً إلى السودان ، وقد أدخلها فيما يعتقد الكثيرون ، الشريف حمد أبو دنانة ، صهر عبد الله بن محمد بن سليمان الجزولي في حوالي عام **1440** ميلادية . غير أن الملاحظ هو أن الطريقة الشاذلية لم تستفد من تلك الأولية في الانتشار في أرض السودان بصورة منهجية منظمة ، وعلى نطاق واسع كما كان متوقعا . بيد أنه كانت هنالك محاولات متفرقة لنشر الشاذلية في السودان ، قام بها بعض الشيوخ الذين تهيأت لهم بعض الظروف للانخراط في سلك هذه الطريقة . ومن هؤلاء الشيخ حمد بن المجذوب (**1693 ـ 1776** م) ، الذي يؤكد ود ضيف الله أنه سلك الطريقة الشاذلية في الحجاز عند سفره لأداء فريضة الحج ، وقد كتب لهذه الطريقة الازدهار على أيدي حفدته بمنطقة (الدامر) بشمال السودان ، حتى اشتهرت الطريقة هناك باسم (المجذوبية) .

وممن تأثروا بالطريقة الشاذلية من متصوفة السودان أيضا ، الشيخ « خوجلي بن عبد الرحمن» ، المتوفى في عام **1743** م ، والمدفون في ضريحه بحي « حلة خوجلي» ، المعروف باسمه داخل مدينة الخرطوم بحري الحالية . أما علاقته بالشاذلية ، فقد نص عليها ود ضيف الله صراحة بقوله : « وأما أصل طريقته فالأساس قادري ، والأوراد شاذلي . فإنّ شيخه محمد بن الناصر الشاذلي . . . » [(2)] .

وبخصوص تاريخ الطريقة الشاذلية في السودان ، وصلة الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن بها تحديداً ، يقول الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن : « يروى أنّ الطريقة الشاذلية دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج ، ولكن لا تفصح الروايات شيئاً عن مصيرها ، ويبدو لي أنّ الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن قد اهتدى بتعاليمها

(1) المرجع السابق ، ص 61 .

(2) كتاب: « الطبقات» لمحمد النور بن ضيف الله ، سبق ذكره ، ص 196 .

إثر موجة أخرى . . الخ » [1] .

والراجح عندي أنّ الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن قد سلك الطريقة الشاذلية في الحجاز أيضا ، على يد الشيخ « محمد بن الناصر الشاذلي » ، كما تشي بذلك عبارة ود ضيف الله ، وذلك أثناء أدائه فريضة الحج كما نرجح . ذلك لأنّ أداء الشيخ خوجلي لفريضة الحج مثبت في كتاب الطبقات أيضا .

أما الشيخ « محمد بن الناصر الشاذلي » ، الذي نرجح أن يكون الشيخ خوجلي قد سلك الطريق الشاذلي على يديه في مكة المكرمة ، والذي أوضح البروفيسور يوسف فضل محقق كتاب الطبقات أنه لم يعثر له على ترجمة [2] ، فأحسب أنني قد وقعت على إشارة إليه أوردها الأستاذ أبو بكر عثمان الحضيري ، محقق كتاب : « المسك والريحان فيما احتواه عن بعض أعلام فزان » للشيخ أحمد الدردير الحضيري ، وذلك في معرض حاشية له حاول من خلالها التعريف بالشيخ السوداني محمد الطاهر المجذوب ، حيث قال ما نصه : « لم أقف على ترجمة له ، وإنما وقفت على بعض التقييدات التي نقلها الدردير الحضيري من كتابه الذي ألفه في كرامات والده (أي والد الشيخ الطاهر المجذوب) المسمى : (ثبوت الكرامات للمريدين من أتم الدلالة واليقين) مخطوط ، حيث وجدت بخط الدردير في كناشته سلسلة سند والده الشيخ محمد المجذوب في الطريقة الناصرية المتفرعة عن الطريقة الشاذلية ، وهي سلسلة الشيخ سيدي محمد المجذوب في الطريقة الشاذلية . فقد تلقّن الذكر عن والده الفقيه قمر الدين ، وهو عن والده الفقيه حمد بن المجذوب ، وهو عن سيدي على الدراوي ، وهو عن سيدي محمد بن ناصر الدرعي ، وهو عن القطب سيدي عبد الله بن حسين . » [3] .

ومن هنا يمكن لنا أن نستنتج تخميناً أن يكون (محمد بن ناصر الدرعي) ، هو نفسه الشيخ (محمد بن الناصر الشاذلي) أستاذ الشيخ خوجلي في الطربقة الشاذلية . والراجح هو أن الشيخ خوجلي كان أسن من الشيخ حمد بن المجذوب ،

(1) يوسف فضل حسن ، « الهجرات البشرية وأثرها في نشر الإسلام في السودان » ، في كتاب: « الإسلام في السودان » ، سبق ذكره ، ص 13 ـ 29 .
(2) انظر الحاشية رقم(5) على ترجمة الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن ، من كتاب « طبقات ود ضيف الله » ، تحقيق: يوسف فضل حسن ، سبق ذكره ، ص 196 .
(3) كتاب: « المسك والريحان» للشيخ أحمد الدردير الحضيري ، سبق ذكره ، ص 61 .

حيث أن الأخير قد توفي في عام **1776** م ، بينما كانت وفاة الشيخ خوجلي في عام **1743** م ولذلك ناسب أن يكون الشيخ خوجلي ، والشيخ على الدراوي ، الذي هو أستاذ الشيخ حمد بن المجذوب ، قد تتلمذا معاً على يد الشيخ محمد بن الناصر الشاذلي ، أو الشيخ محمد بن ناصر الدرعي . ولعل صفة الدرعي هذه أن تكون نسبة لبلدة « الدرعية » المعروفة في نجد .

هذا ، ولقد شهدت الطريقة الشاذلية ازدهاراً غير مسبوق في السودان خلال القرن العشرين ، وذلك عن طريق المرحوم الشيخ محمد عبده البرهاني (**1902 ــ 1983** م) ، الذي عمل على نشر ما أسماها بـ « الطريقة البرهانية ، الدسوقية ، الشاذلية » ، والتي حظيت بانتشار واسع للغاية ، تجاوز حدود السودان لكي يشمل عدداً من الدول العربية ، والأفريقية ، والأوروبية أيضا .

ثانياً : المدرسة القادرية

وهذه هي أكبر المدارس الصوفية ، وأوسعها انتشاراً في السودان بلا جدال . ولقد رأينا فيما تقدم أنّ المصادر الوطنية السودانية ، ككتاب الطبقات للشيخ محمد النور بن ضيف الله ، تؤكد أن أول من « أوقد نار الشيخ عبد القادر الجيلاني » في أرض السودان ، هو الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (**913 ــ 1060** هـ) ، الذي يقال أن شيخاً يدعى (عبد الكافي) قد قدم عليه بالخطوة خصيصاً من المغرب ، فلقنه أوراد الطريقة القادرية [1] .

ولكن الجهد المنهجي المنظم من وراء انتشار الطريقة القادرية في البلاد ، يعود بصفة أساسية للزيارة التي قام بها الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي إلى مملكة سنار في حوالي عام **1566** م صحبة الحاج السوداني داوود بن عبد الجليل ، الذي كان قد التقى بالشيخ البهاري في مكة ، وزين له فكرة السفر إلى السودان ، حيث قام بتسليك خمسة من كبار شيوخ البلاد ووجهائها وهم : الشيخ محمد الهميم بن عبد الصادق ، والشيخ بان النقا الضرير ، والشيخ حجازي بن معين ، والشيخ عجيب بن عبد الله جماع ، والشيخ شاع الدين ولد التويم [2] .. ومن هؤلاء انتشرت الطريقة القادرية في سائر أنحاء السودان وخصوصا في وسط البلاد . ومن أشهر البيوتات القادرية في السودان في الوقت

(1) كتاب « الطبقات » ، مرّ ذكره ، ص 42 .
(2) المرجع السابق ، ص 129 .

الراهن هي العركيون نسبة للشيخ دفع الله بن مقبل العركي وأحفاده بالنيل الأزرق والجزيرة ، والمكاشفية نسبة للشيخ عبد الباقي أحمد المكاشفي (**1865 ــ 1963** م) بغرب الجزيرة ، والبادراب نسبة للشيخ محمد العبيد بدر (**1810 ــ 1885** م) ببلدة « أم ضوا بان» وهي إحدى ضواحي العاصمة السودانية الخرطوم ، إلى جانب أسرة الشيخ أحمد الجعلي ببلدة « كدباس» الواقعة بالقرب من مدينة « بربر » بشمال السودان ، فضلاً عن بيوتات قادرية أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها جميعا .

ثالثاً : المدرسة الخلوتية البكرية

وهذه المدرسة تنقسم إلى فرعين هما : الطريقة السمانية ، والطريقة التيجانية :

(أ) الطريقة السمانية

وهي تنسب إلى مؤسسها الشيخ محمد عبد الكريم السمان ، الذي عاش وتوفي بالمدينة المنورة خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد انتشرت تلك الطريقة في السودان على يد الشيخ أحمد الطيب بن البشير (**1753 ـ 1823** م) ، وأبنائه ، وأحفاده ، وتلاميذه . ولم يقتصر انتشار الطريقة السمانية بواسطة الشيخ أحمد الطيب وذريته على السودان فحسب ، بل تجاوزه إلى مصر ، وبلاد الحبشة ، ونيجيريا . وكان الشيخ محمد عبد الكريم السمان ، قد تلقى الطريقة الخلوتية من الشيخ مصطفى البكري بمصر ، وذلك قبل أن يستقل بطريقته التي صارت تعرف فيما بعد بالسمانية . ومن أشهر من كانوا ينتمون إلى الطريقة السمانية من الأعلام المعاصرين في السودان ، وأذيعهم صيتاً داخل البلاد وخارجها ، هو الشيخ عبد الرحيم البرعي عليه رحمة الله (**1923 ــ 2005**) ، الذي انتقل إلى رحمة الله في مطلع هذا العام الميلادي **2005** . وسنده في الطريقة السمانية كالآتي : الشيخ عبد الرحيم البرعي أخذ الطريقة السمانية على يد والده الشيخ محمد بن وقيع الله ، الذي أخذها عن الشيخ عمر محمد الصافي ، الذي أخذها عن الشيخ برير بن الحسين ، الذي أخذها عن الشيخ محمد التوم بن بان النقا ، الذي أخذها عن القطب الشيخ أحمد الطيب بن البشير ، الذي أخذها عن الشيخ محمد عبد الكريم السمّان بالمدينة المنورة .

أما بخصوص الصلة بين السودان وبلاد المغرب العربي ، من خلال تعاليم الشيخ محمد بن عبد الكريم السمّان تحديداً ، فإنّ المصادر تخبرنا بأنّ هنالك شيخاً صوفياً تونسياً هو الشيخ : « أبو الحسن علي بن عمر الشايب» ، نرجّح أنه ربما كانت له

صحبة في الطريق مع الشيخ السوداني القطب « أحمد الطيب بن البشير » ، ناشر الطريقة السمانية بالسودان وبعض الدول المجاورة . ذلك لأنّ المصادر تذكر أنّ الشيخ أبا الحسن علي بن عمر الشايب ، كان قد تلقى الطريقة القادرية من الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان بالحجاز ، وهو ـ على ما يرى بعض الباحثين ـ أول من أدخل الطريقة القادرية إلى تونس في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة [1] .

(ب) الطريقة التيجانية

وهي الطريقة التي تنسب إلى مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني ، المولود في (عين ماضي) بالجزائر في عام **1150** هـ ، الموافق لسنة **1737** م ، والمتوفى في فاس بالمغرب في عام **1230** هـ ، الموافق لسنة **1815** م . وقد انتشرت هذه الطريقة التي تعد من أبرز مظاهر التواصل الصوفي بين السودان وبلاد المغرب العربي الكبير ، انتشرت انتشارا واسعا في السودان ، وخصوصاً في غرب البلاد بإقليمي كردفان ودارفور ، فضلاً عن انتشارها داخل سائر المدن والمراكز الحضرية في مختلف أنحاء السودان ، مثل الفاشر ونيالا والأبيض وبارا وأم درمان وود مدني وبربر وغيرها .

ومن الحقائق ذات العلاقة بالتواصل الصوفي بين السودان وبلاد المغرب فيما يلي الطريقة التيجانية بصفة خاصة ، ومؤسسها الشيخ أحمد التيجاني تحديداً ، هو أنّ الشيخ التيجاني قد تتلمذ في الطريقة الخلوتية على الشيخ محمود الكردي ، بينما كان الشيخ محمود الكردي هذا ، قد تزامل مع العالم السوداني الشيخ أحمد بن عيسى الأنصاري في الدراسة على يد العالم المصري المشهور الشيخ أحمد الدردير .

وهنالك صلة أخرى تتمثل في كون الشيخ التيجاني قد تتلمذ لمدة على يد الشيخ مصطفى البكري الذي كان قد تتلمذ على يديه من قبل الشيخ محمد عبد الكريم السمان ، الذي كان يسكن المدينة المنورة ، وهو كما أسلفنا ، أستاذ القطب الصوفي السوداني الكبير الشيخ أحمد الطيب البشير ناشر الطريقة السمانية في السودان ، ومصر ، والحبشة [2] .

رابعاً : مدرسة السيد أحمد بن إدريس الفاسي

(1) الدكتور أحمد الطويلي: « الضوء المبين في التعريف بأولياء تونس الصالحين » ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 2004 م ، ص 136 ـ 137 .

(2) حسن مكي محمد أحمد ، « التشكيل العقلي لإنسان السودان » ، مصدر سبق ذكره ، ص 17 .

تنسب هذه المدرسة التي تعد بحق تجسيداً لعملية التواصل الصوفي بين السودان وبلاد المغرب العربي الكبير ، للشيخ الشريف الإدريسي الحسني ، السيد أحمد بن إدريس ، الذي ولد بمدينة (فاس) المغربية في حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، وهاجر منها إلى القاهرة بمصر خلال الربع الأخير من نفس القرن ، ومن ثمّ انتقل إلى الحجاز ، واستقر بمكة المكرّمة ، وأسس فيها مدرسة فقهية وصوفية مرموقة كان لها إشعاعها وأثرها الكبير عبر رقعة كبيرة من العالم الإسلامي امتدت من ليبيا إلى الصومال عبر مصر والسودان ، فضلا عن الحجاز واليمن ، حيث يوجد ضريح السيد أحمد بن إدريس ببلدة « صبيا » اليمنية .

كان من أهم تلاميذ الشيخ الأستاذ أحمد بن إدريس ثلاث شخصيات مرموقة ، ذات صلة وثيقة بما نحن بصدده فيما يتعلق بالتواصل الصوفي بين سودان وادي النيل ، وبلاد المغرب العربي الكبير . وتلك الشخصيات الثلاث هي :

السيد محمد بن علي السنوسي (1787 ـ 1859 م) الذي عمل على نشر الثقافة الإسلامية ، كما أسس ونشر الطريقة والحركة السنوسية داخل أجزاء واسعة من ليبيا وتشاد ، وبعض نواحي دار فور بغرب السودان . وبمناسبة الحديث عن السنوسي ، هنالك علم سوداني لم تترجم له المصادر السودانية ، أو الليبية ترجمة كافية ، كان هو الآخر من تلاميذ السيد أحمد بن إدريس ، وهو الشيخ « محمد الشفيع » ، الذي يقال إنه قد درس على يد السيد ابن إدريس بمكة ، وإنه صحب السنوسي إلى ليبيا ، وإنّه قد تولى الإشراف على بعض الزوايا السنوسية هناك . ولا ندري إن كان للشيخ الشفيع هذا عقب موجود في ليبيا إلى الآن أم لا؟ .

أما بخصوص العالم السوداني الأصل الشيخ عبد الله السني الذي سبقت الإشارة إليه من قبل فيقول عنه الدكتور يحيى محمد إبراهيم ما يلي : « هاجر مع السنوسي وأشرف على الزوايا وأسس الكثير منها . وأصلح بين القبائل وعلّم الناس ، وتزوج واستقر في ليبيا ، وصار أبناؤه من المجاهدين ضد الاستعمار الإيطالي في ليبيا ، وأحدهم بشّر بالإسلام في غرب أفريقيا » (1) . ويقول عنه الباحث الليبي محمد مسعود

(1) الدكتور يحيى محمد إبراهيم ، « مصادر مدرسة السيد أحمد بن إدريس المغربي » مقال بمجلة: « دراسات أفريقية » إصدار مركز البحوث والترجمة بجامعة أفريقيا العالمية ، الخرطوم ، العدد 14، يناير 1996 م ، ص 79 .

جبران : « ولد بسنار في السودان سنة **1215** هـ الموافق لعام **1800** م . رحل وتجول حتى وصل إلى ليبيا واستقر بها . أسس العديد من الزوايا في مناطق عدة من ليبيا منها زاوية مزدة التي حظيت بإشرافه . » [1] .

ومن مظاهر التواصل الروحي بين السودان وبلاد المغرب العربي ، في إطار مدرسة السيد أحمد بن إدريس ، وخصوصاً أصداء الحركة السنوسية داخل السودان خلال القرن التاسع عشر الميلادي ، ما ثبت من خلال وثائق الثورة المهدية في السودان ، من أنّ الإمام محمد أحمد المهدي (**1843 ـ 1885** م) ، قد راسل « محمد المهدي» وهو النجل الأكبر للسنوسي المذكور وخليفته ، ودعاه إلى الانضمام إلى الثورة المهدية المشهورة في السودان ، بل تؤكد الوثائق أن المهدي قد عرض على محمد المهدي السنوسي تولي منصب أحد خلفائه الأربعة ، غير أن محمد المهدي السنوسي قد تجاهل تلك الدعوة فيما يبدو .

والسيد محمد عثمان الميرغني الكبير الملقب بـ « الختم» (**1793 ــ 1853** م) ، مؤسس الطريقة الختمية في السودان ومصر والحبشة . وبخصوص المرغني ، أود أن ألاحظ انتشار اسمي « المرغني» و« المحجوب» ، داخل ليبيا ، وهما اسمان علمان ذائعا الانتشار جداً لدى السادة الختمية ومريديهم بالسودان ، وبلغني أن هنالك قبيلة تسمى « المراغنة» والواحد منهم « مرغني» في ليبيا ، ولا أدري إن كانت ثمة علاقة بين مراغنة السودان ومراغنة ليبيا . علماً بأنّ مراغنة السودان هم أساسا ـ كما هو شائع ـ أشراف حسينيون ، سكن أسلافهم الأقدمون دهراً في بلاد العجم في بعض نواحي آسيا الوسطى ، حيث اكتسبوا لقب « مرغني» من بلدة هناك تسمى « مرغانة» ، ثم نزح أحد أجدادهم الأقربين إلى الحجاز ، فأقام حفدته من بعده في الطائف ومكة المكرمة ، ومن هناك انتقل السيد محمد عثمان المرغني الختم ، تلميذ السيد أحمد بن إدريس إلى السودان في حوالي عام **1815** م ، حيث تزوج هناك ، ونشر طريقته الختمية ، ولا تزال ذريته تلعب دورا كبيرا في الحياة الروحية ، والاجتماعية ، والسياسية داخل البلاد . والمعروف أنّ للمرغنية وجودا داخل مصر ، وهنالك حي يعرف باسم « الميرغني» بمدينة القاهرة ، كما بلغني أنه كانت توجد زاوية « للختمية» بطرابلس بليبيا ، حتى حوالي منتصف السبعينيات من القرن الماضي .

(1) انظر مجلة: « البحوث التاريخية» ، السنة السادسة ، العدد الأول 1984 م ، مركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، ليبيا .

والسيد إبراهيم الرشيد بن محمد صالح الدويحي السوداني (**1813 ــ 1874**م) ، ناشر الطريقة الأحمدية الإدريسية في السودان ومصر والصومال . والمعروف هو أنّ الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحي لم يؤسس طريقة صوفية كما فعل تلميذا السيد أحمد بن إدريس الآخران ، وهما السنوسي والميرغني ، وإنما سار على خطى أستاذه ، والتزم بتعاليمه دون أن يتجاوزها ، بيد أنه نشط للغاية في شرح تلك التعاليم ، فضلاً عن نشاطه في تربية المريدين .

حول شخصية السيد إبراهيم الرشيد الدويحي ، يفيدنا الباحث السوداني الدكتور يحيى محمد إبراهيم ، أن الشيخ الرشيد قد ولد بقرية « الكرو » بديار الشايقية بشمال السودان في عام **1813** م ، وأنه توفي ودفن بمكة المكرمة في عام **1874** م .

وقد استنتج الباحث أنّ الشيخ إبراهيم الرشيد كان يحظى بمكانة خاصة في قلوب أنجال السيد أحمد بن إدريس قاطبة ، وذلك نسبة لوفائه لتعاليم والدهم وأستاذه ، والتزامها التزاماً مطلقا . وقد نقل عن محمد (الغوث) بن السيد أحمد بن إدريس في وصف الشيخ الرشيد ما نصه : « هو مركز العلوم الأحمدية ، ومهبط الإمدادات الإدريسية ، وقاموس المعارف الإلهية ، ومرشد المريدين إلى حياتهم الأبدية ، وشيخ الطريقة ، وإمام الحقيقة ، الأنور بالنور ، الولي الكامل ، المقتفي أثر النبوة . . الخ » .

ومما يدل أيضاً على شهرة الشيخ السوداني إبراهيم الرشيد الدويحي ، وذيوع صيته بين مريدي المدرسة الشاذلية في التصوف بصفة عامة ، ومدرسة السيد أحمد بن إدريس على وجه الخصوص ، هو ورود اسمه في « منظومة أهل البيت والصالحين» الملحقة ببعض الطبعات الأخيرة من كتاب « دلائل الخيرات» ، مثل الطبعة الثانية لهذا الكتاب ، من منشورات المكتبة العزيزية بالقاهرة ، الصادرة في عام **2000** م ، الموافق لسنة **1420** هجرية . حيث يقول الناظم في معرض توسله ببعض الأولياء :

وبأحمد بن ادريس الفرد الذي ... في حبّ طه المصطفى بلغ المدى
وبإبراهيم بن الرشيد إمامنا ... بحر الفيوضات السمّي الأمجدا

وقد ذكر أنّ الشيخ الرشيد قد بذل جهوداً مضنية من أجل جمع كلمة مريدي السيد أحمد بن إدريس بعد وفاته ، وحضهم على السير على منهجه ، والتقيد بمقتضى طريقته . كما اجتهد بصفة خاصة في شأن تقريب شقة الخلاف الذي شجر بين تلميذي السيد أحمد بن إدريس الكبيرين ، محمد بن علي السنوسي ، ومحمد عثمان الميرغني ،

حيث أشير إلى أنه قد سافر من صبيا باليمن حيث توفي أستاذه ، إلى مكة المكرمة ، واجتمع بالسنوسي ، ثم اجتمع به مرة أخرى في « برقة » في حوالي سنة **1255** هـ ، الموافق لسنة **1839** م للغرض ذاته .

ولكن يبدو أن الهوة كانت قد اتسعت بين الرجلين بسبب التنافس ـ كما ذكروا ـ على الاستئثار بخلافة السيد أحمد بن إدريس الروحية ، فاستقل كل منهما بعد ذلك بطريقته الخاصة ، وأسماها باسمه . فانتشرت السنوسية في ليبيا وتشاد وأجزاء من غرب السودان كما أسلفنا ، بينما انتشرت المرغنية الختمية في السودان ومصر وإريتريا أيضا .

هذا إلى جانب استمرار بعض جيوب الطريقة الأحمدية الإدريسية الأصلية كما نشرها الشيخ الرشيد وأحفاده وتلاميذه ، أو عبر جهود أحفاد السيد أحمد بن إدريس نفسه ، الذين استقرت طائفة منهم في السودان واختلطوا مع أهله بنواحي « دنقلة » ، و« أم درمان» وغيرهما منذ عشرات السنين [1] .

الخلاصة

يتبين لنا مما تقدّم أن هنالك صلات تواصل صوفي عريقة وقوية بين بلاد السودان الشرقي ، أو سودان وادي النيل ، وبلاد المغرب العربي الكبير عبر مختلف الحقب ، وأنّ تلك الصلات قد ظلت تلعب دوما ، دوراً أساسياً في عملية التقارب والتبادل الثقافي والتفاهم المشترك بين شعوب هذه المنطقة ، وذلك في إطار العقيدة الإسلامية الجامعة .

فعليه ، ينبغي العمل المشترك عبر جهود الباحثين المخلصين في هذه المنطقة ، من أجل إلقاء المزيد من الأضواء على خفايا تلك العلاقات بغية سبرها وتجلية غوامضها ، خدمة للهدف الأسمى ألا وهو تمتين الصلات والعلاقات فيما بين الشعوب الأفريقية المسلمة بصفة خاصة ، والشعوب العربية والإسلامية بصفة عامة ، حاضراً ، ومستقبلا .

---

(1) بخصوص السيد أحمد بن إدريس ومشاهير تلاميذه ، انظر أعمال الدكتور يحيى محمد إبراهيم ، مثل مقاله الموسوم بـ « مصادر مدرسة السيد أحمد بن إدريس المغربي» بمجلة: « دراسات أفريقية» ، إصدار مركز البحوث والترجمة بجامعة أفريقيا العالمية ، بالخرطوم ، العدد الرابع عشر ، يناير 1996 م ، ومقاله: « جهود الشيخ الرشيد الدويحي في إطار مدرسة أحمد بن إدريس» المنشور بمجلة: «الخرطوم 2005» ، العدد الثالث ، مارس 2005 ، ص 18 ـ 21 .

والنقطة الأخرى التي أود أن أخلص إليها ، هي ضرورة أن يبادر أهل التصوف بما عرفوا به من تسامح ، وأريحية ، وسعة صدر ، بالسعي إلى لملمة شعث الأمة ، وتوحيد كلمتها عبر الحوار المخلص ، والجاد بين مختلف مكونات المجتمع الإسلامي ، وذلك من أجل إعلاء قيم التسامح ، والبعد عن الغلو والتطرف ، والعمل على إبراز الوجه السمح للحضارة الإسلامية ، وللدين الإسلامي وشريعته السمحة .

وفي الختام ، أشكر لكم جميعاً حسن الاستماع ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .